المحاضرة التاسعة: ابن خميس التلمساني.

1_ نسبه ونشأته:

هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن عمر الحميري الحجري المعروف بابن خميس التلمساني، أصله من اليمن، ولد بتلمسان سنة 645هـ وقيل سنة 650هـ. نشأ بتلمسان ودرس على علمائها، وعرف عنه حبه للعزلة، التقى في تلمسان الرحالة المغاربي العبدري عام 688هـ فأخرجه من عزلته وولاه السلطان أبو سعيد يغمراسن ديوان الإنشاء وأمانة سره لم يبق طويلاً في هذا المنصب بسبب ما لقيه من سوء معاملة في البلاط، فذهب غاضباً إلى سبتة ومدح حاكمها وتفرغ للتدريس فيها، بعدها انتقل إلى غرناطة، وتصدر للإقراء، فقربه الوزير ابن الحكيم إلى مجلسه وكانت له فيه مدائح شعرية.

يعد ابن خميس التلمساني شاعراً كبيراً، ملماً بالأدب واللغة وأصول الفقه والمذاهب والحكمة والمنطق والطب، اشتهر ابن خميس بشعره الذي يحتوي على دعابة ونزعة دينية تصوفية، قال عنه ابن الخطيب بأنه "كان نسيج وحده زهداً وانقباضاً وأدباً وهمة عارفاً بالمعارف القديمة مطلعاً بتفاريق النحل، قائماً على العربية والأصليين...". قتل ابن خميس مع ابن الحكيم، عندما هوجم قصر هذا الأخير عام 708هـ.

كان حب ابن خميس لوطنه تلمسان كبيرا جدا وبرز كثيرا في شعره حتى أنه خصص قصيدة في مدحها ووصفها ووصف معالمها.

2_ شعره:

نهضت الدولة الزيانية؛ دولة بنى عبد الواد بالأدب شعرا ونثرا وسرعان ما أنتجت النهضة الأدبية في زمنها شاعرا كبيرا هو ابن خميس الذي تنوعت لديه الأغراض الشعرية:

_ الغزل: له غزليات رقيقة بديعة كثيرة، من ذلك قوله:

نظرت إليك بمثل عيني جؤذر *** وتبسّمت عن مثل سمطي جوهر

عن ناصع كالدرّ أو كالبرق أو *** كالطّلع أو كالأقحوان مؤشّر

تجرى عليه من لماها نطفة *** بل خمرة لكنها لم تعصر

لو لم يكن خمرا سلافا ريقها *** تزرى وتلعب بالنّهى لم تحظر

وكذاك ساجي جفنها لو لم يكن *** فيه مهنّد لحظها لم يحذر

لو عجت طرفك في حديقة خدّها *** وأمنت سطوة صدغها المتنمّر

لرتعت من ذاك الحمى في جنّة *** وكرعت من ذاك اللما في كوثر

يشبّه ابن خميس عيني صاحبته بعيني جؤذر وأسنانها في ثغرها بعقدي جوهر، ويقول إنه ثغر ناصع البياض كالدرّ أي اللؤلؤ أو كضوء البرق أو كطلع النخل أو كزهر الأقحوان الأبيض المفلّج الأوراق كأسنان هذا الثغر المفلّجة، وهو ثغر يجرى عليه من شفتي صاحبته نطفة (قطرات) سائغة من الريق بل خمر، وإن لم يعصرها خمار، خمرة تلعب بالعقول، غير محرمة، ولو لم يكن في فاتر جفنها سيف لحظها يحميها ما حذرت، ولو أتيح لك أن تعطف طرفك في خدها وجماله المتنوع، وكأنه حديقة باهرة، وأمنت بطش عقرب صدغها المتنمر لنعمت بجنّة رائعة، ونهلت من لماها أو شفتيها من الكوثر نهر الفردوس. ويمضى ابن خميس في هذا الغزل قائلا:

طرقتك وهنا والنجوم كأنها *** حصباء درّ في بساط أخضر

بيضا إذا اعتكرت ذوائب شعرها *** سفرت فأزرت بالصباح المسفر

طرحت غلالتها فقلت سبيكة *** من فضة أو دمية من مرمر

منحتك ما منعتك يقظانا فلم *** تخلف مواعدها ولم تتغيّر

هاجت بلابل نازح عن إلفه *** متشوّق ذاكي الحشا متسعّر

يقول إن صاحبته طرقته أو زارته في منتصف الليل والسماء تنتثر لآلئ نجومها في بساطها الأخضر، ويقول إنها إذا أحسّت بكثافة شعرها وكشفت عن وجهها أزرت بالصباح المضيء الجميل، أما إذا خلعت غلالتها فإنها تبدو كأنها سبيكة من فضّة أو دمية من مرمر، ويقول إنه لم ير شيئا منها يقظان وإنما ذلك حلم رآه فهاج شجون مغترب عن إلفه متشوق تتقد أحشاؤه وتشتعل حبا وهياما. ولابن خميس غزل كثير في مطالع مدائحه يصف فيه لوعات حبه وما تكنّ ضلوعه من مواجعه، وقد يحيله غزلا صوفيا بديعا.

_ شعر الغربية والحنين:

عرف ابن خميس بشاعر الحنين أو شاعر تلمسان؛ لأن أشعاره و هي من أبلغ ما يكون كانت في أغلبها شوقا و حنينا إلى بلده الأم بعد خروجه منها اضطرارا، و له دواوين شعر تدرس في بلاد المغرب و المشرق إلى يومنا هذا، و تعد مرجعا مهما في الشعر العربي و الأندلسي.

بعد هروب ابن خميس إلى الأندلس و إلى غرناطة بالتحديد حيث نظم فيها أشعاره الباقية إلى يومنا هذا، و منها قصيدة _ هي الأبرز_ يصف لحظة خروجه من تلمسان:

ألح الزمان بأحداثه ***فألقيت طوعا إليه السلاحا

وطوح بي عن تلمسان ما ***ظننت فراقي لها أن يتاحا

وأعجل سيري عنها ولم ***يدعني أودع تلك البطاحا

نأى بصديقك عن ربعه***فكان له النأي موتا صراحا

وكان عزيزا على قومه *** إذا هاج خاضوا اليه الرماحا

يسرد ابن خميس في هذه القصيدة لحظات خروجه من تلمسان و قد كان عزيزا فيها و مقربا من بني زيان وملوكها؛ ولكن وشاية كاذبة من عذول حقود اضطرته للخروج إلى الأندلس.

كان فراق تلمسان المحرك الرئيسي لأشعاره فكان يجلس في الميناء ينتظر السفن القادمة من العدوة ليسأل عن تلمسان و أحوالها، وتهب الريح فتذكره بها فيقول:

سل الريح ان لم تسعد السفن أنواء*** فعند صباها من تلمسان أنباء

أحن لها ما أطت الذيب حولها ***وما عاقها من مورد الماء أظماء

فما فاتني منها نزاع على النوى *** ولا فاتني منها على القرب اجشاء

وصل الحنين بابن خميس لدرجة عالية من الأسى والاغتراب النفسي والمكاني، فتنفجر عاطفة الحزن عنده و تلح عليه الأشواق ، فلا يستطيع تغيير شيء ليجد في الكتابة ملاذه الأول والأخير، يقول:

سحت بساحك يا محل الأدمع ***وتضرمت أسفا عليك الأضلع

لله أيام بها قضيتها ***قد كنت أعلم أنها لا ترجع

وكان لا ينام إلا مغرغرا بالدموع على مدينته الأم، يرجو رؤية حتى خيالها في منامه، وقد قال في ذلك:

وأستجلب النوم الغرار ومضجعي ***قتاد كما شاءت نواها وسلاء

لعل خيالا من لديها يمر بي *** ففي مره به من جوى الشوق أبراء

ثم يذكر أماكن منها بالتحديد ويذكر ذكرياته بها، وهي أماكن لا تزال باقية بحمد الله فيقول:

لساقية الرومي عندي مزية ***و إن رغمت تلك الرواسي الرواشح

فكم لي عليها من غدو و روحة ***تساعدني فيها المنى و المنائح

بالإضافة إلى ما سبق نجد في كتاب "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" للمقري أشعارا لابن خميس في الحنين لتلمسان تعد من أبرز ما قيل في وصف تلمسان ومدحها والحنين إليها يقول فيها:

تلمسان جادتك الغوادي الروائح *** وأرست بواديها الرياح اللواقح

وسحّ على ساحات باب جيادها *** مُلثِّ يصافي تربها ويصافح

يطير فؤادي كلما لاح بارق *** ويزداد شوقي كلما مر سائح

ومن كتاب "**الإحاطة في أخبار غرناطة**"، نجد له:

ألا لا تذكريني تلمسان والهوى *** وما دهكت منا الخطوب الدواهك

خاتمة: من خلال ما سبق نلاحظ:

تميز ابن خميس التلمساني بطرقه جميع الأغراض الشعرية التي طرقتها الشعرية العربية القديمة، لكنه تميز وهو فارس فيها بشعر الحنين لتغربه كثيرا، وتعرضه لمحن وويلات عديدة، بدءا بخروجه من تلمسان، مرورا بالعسفيين بسبتة، وصولا إلى مالغا وغرناطة.

يتقاطع شعر ابن خميس ويتناص مع كثير من نصوص الشعر العربي القديم بقدر ما كان متفاعلا ومتواصلا لها، بالقدر نفسه، كان متميزا مبتدعا في الصور الشعرية، وفي بناء الموضوعات التي جعلته بحق شاعرا يُحسد على مكانته الشعرية، لذا وجدنا رد فعله على هذا الواقع المر بلغة في بعض الأحيان، تبدو غريبة، وهو في ذلك، يبزّ الآخرين في ديباجتهم الشعرية، ويظهر لهم علو كعبه في مملكة الشعر.

لقد أجاد ابن خميس في شعر الطبيعة، ومع هذا فهو عندما يتحدث عن الطبيعة، لا يتخذها غاية ومقصدا، وإنما هي وسيلة من وسائل كُثُر وظفها ليؤسس صورة نفسية عصيبة تجمع بين حبيبة متمنعة هي تلمسان وأشواق ملتاعة نحو هذه الحبيبة التي لا يجد لها سبيلا سوى هذا البناء الفني الراقي جدا.

استفاد ابن خميس في بناء مرجعيته الشعرية أو خلفيته الشعرية من القرآن الكريم، فأبدع في ذلك إبداعا منقطع النظير، كما أنه استطاع أن يوظف الإعجازية في النص القرآني توظيفا لا يمس بقدسية الآيات القرآنية، مثل "الرياح اللواقح"، نجده يضمنها ويقتبسها اقتباسا، والشيء نفسه يمكن أن ينسحب على علاقة شعر ابن خميس بالمعطيات التاريخية والسوسيو ثقافية في كتاباته الشعرية إبان بني عبد الواد الزيانيين، فقد كان بحق راصدا لمجمل التحولات السياسية والثقافية التي مست تلمسان بخاصة، وبني عبد الواد عامة، وهذا لا يعني قطعا أنه كان يقيس الصناعة الشعرية لديه بمقياس المعطيات الخارجية، بل إن هذه المعطيات تأخذ صورتها التخيلية الابتدائية من داخل رؤيته للحياة والوجود.

وظف ابن خميس مواضيع أخرى في شعره كالزهد والتصوف، وهذا عائد لتنشئته الدينية، واهتماماته الفقهية.

المحاضرة العاشرة: أبو حمو موسى الزياني الثاني.

1_ **نسبه ونشأته:** ولد أبو حمو موسى لأبيه يوسف بن عبد الرحمن بن يغمراسن في أواخر مقامه بغرناطة في بلاط سلطانها أبي الوليد بن فرج سنة 723 هـ/1323 م، وفي تلك السنة استدعى يوسف وإخوته إلى تلمسان سلطانها أبو تاشفين الأول (718 - 737 هـ)، ولبّوه وأكرمهم وأعلى مكانتهم بين أمراء الأسرة، وبذلك كان منشأ أبي حمو موسى ومرباه الأول في تلمسان، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة من عمره استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان وأرغم أباه وبعض أمراء الأسرة على الاستقرار بفاس، وعلى يد شيوخها أتم أبو حمو موسى تعلمه، وظل بها مع أبيه إلى بداية إمارة عميه أبي سعيد وأبي ثابت سنة 749 هـ/1349 م ، حتى إذا فتك بهما السلطان أبو عنان المريني سنة 753 هـ/1353 م، رأينا أبا حمو موسى يقصد تونس وسلطانها أبا إسحاق فأكرمه غاية الإكرام، حتى إذا كانت سنة 758 هـ/1357 م واستولى فيها السلطان المريني أبو عنان على تونس ارتحل أبو حمو مع السلطان الحفصي إلى إقليم الجريد جنوبي الإقليم التونسي.

واضطرت الظروف أبا عنان بالعودة إلى فاس مع جيشه في السنة التالية، وعاد السلطان الحفصي وأبو حمو موسى إلى تونس، والتف حوله عرب الدواودة وأخذ يستعين بهم في مطاردة المرينيين، وسارعت إليه قبيلة بني عامر شيعة أسرته ووطنه وتوجه بهم إلى الزاب ثم ورقلة، ونازل أولاد عريف من قبيلة سويد الهلالية وهزمهم هزيمة ساحقة، وجاءه عقبها نبأ وفاة السلطان أبي عنان المريني في أواخر ذي الحجة سنة 759 هـ/1358 م فصمم على أخذ تلمسان، وبايعه جميع من كان معه في الخامس من محرم سنة 760 هـ/1359 م وجدّ في السير مع جموعه من العرب وغيرهم، وسمع به كل من كان في طريقه إلى تلمسان، وكان أبو عنان ولّى عليها ابنه محمدا وترك معه حامية، فحاصره أبو حمو مدة كانت فيها مناوشات، وتيقن المرينيون أنه لا طاقة لهم بمنازلة أبي حمو، فطلبوا الأمان، وسلموا تلمسان إليه وبايعه أهلها حين دخلها في غرة شهر ربيع الأول، يقول التنسي: إن أبي حمو «ساس أهل مملكته بالسيرة الحسنى وغمر الرعية قسطاس عدله الأسنى، وقسم أوقاته بين حكم يقضيه وحق يمضيه، وعاقّ يرضيه، وسيف لحماية الدين ينضيه، وسبيل إلى رضاء الله تعالى ورسوله يفضيه». وقد غيّر اسم الدولة، إذ كان اسمها بني عبد الواد نسبة إلى قبيلتهم، فرأى أن تسمى باسم الدولة الزيانية نسبة إلى زيان والد يغمراسن مؤسس الدولة.

هكذا أعاد أبو حمو لها عزّها وسلطانها واستردّ لها بلدانها في الجزائر: وهران والجزائر وتدلس، وكثرت الحروب في أيامه بينه وبين بعض القبائل العربية والدولة المرينية. وثار عليه ابن عمه أبو زيان بن السلطان أبي سعيد وانصاعت له قبيلة عامر واستولى على مدينتي المدية وملیانة، ونشبت بينه وبين أبي حمو وقائع، واستطاع

أبو حمو القضاء على ثورته في أواخر سنة 769 هـ/1368 م وانتهز السلطان عبد العزيز المريني فرصة تضعضع جيشه من كثرة الحروب واستولى على تلمسان سنة 772 هـ/1371م.

ظل أبو حمو يتنقل في الصحراء حتى علم بوفاة السلطان المريني سنة 774 هـ/1373 م فعاد إلى عاصمته تلمسان، وتبدأ منافسات بين ابنه وولى عهده أبي تاشفين وإخوته، ويغتال يحي بن خلدون كاتب أبي حمو ومؤرخه في مؤامرة دبّرها ولى العهد سنة 780 هـ/1379 م، حتى إذا كانت سنة 786 هـ/1385 م أغار السلطان أبو العباس المرينى–واستولى–على تلمسان، غير أن الأحداث في عاصمته فاس اضطرته للعودة إليها سريعا، وعاد أبو حمو إلى تلمسان. وتسوء العلاقات سوءا شديدا بين ولى العهد أبي تاشفين وإخوته، مما جعل أبو حمو يخلع نفسه إرضاء لأبي تاشفين سنة 791 هـ/1389 م ويتجه إلى الحج. وما إن نزل بجاية حتى غيّر رأيه، واتّجه إلى تلمسان، واستشار كل من كان في طريقه وأقبل إليها بجموعه، وعلم ابنه أبو تاشفين، فلحق بفاس واستعان بسلطانها المريني، وأعانه بجيش كثيف والتقى مع أبيه وجموعه واقتتلوا قتالا شديدا وكبا الفرس بأبي حمو وتوفّى. وهو من خيرة سلاطين الأسرة الزيانية، وقد نهض بالعلم في دولته واشتهر بها كثير من العلماء في مقدمتهم أبو عبد الله الشريف الذى بنى له مدرسة كبيرة أكثر عليها من الأوقاف ورتب فيها الجرايات للشيوخ والطلا، وكما نهض بالعلم نهض بالأدب، فمن كتّابه وشعرائه محمد بن يوسف الثغري، ومنهم محمد بن على العصامي ومحمد بن صالح شقرون، ومن مآثره احتفاله بالمولد النبوي احتفالا عظيما، كان يبدأ فيه بمدحة نبوية له ثم تتوالى مدائح نبوية أخرى شطرا كبيرا من الليل، وكان يدعو إليه الناس من العامة والخاصة، وتقام قبيل الصباح مأدبة ضخمة.

2_ شعره، الأغراض والخصائص:

كان أبو حمو أديبا بارعا وله كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك"، كما كان يحسن نظم الشعر، واحتفظ يحي بن خلدون بكثير منه في الجزء الثاني من كتابه ب"غية الرواد في ذكر الملوك من بنى عبد الواد،، وجمع منه كثيرا الدكتور عبد الحميد حاجيات في كتابه عن أبي حمو موسى، وهو موزع بين فخر ونبويات مع مرثيتين لأبيه. ونراه عقب استقراره في تلمسان وتمام الملك له ينظم ميمية طويلة يصور فيها حركته من تونس إلى تلمسان لاسترداد ملك آبائه، وكيف أخذ يعد جيشا لمنازلة المرينيين من قبيلة عامر واقتحامه للزاب وريغ وورقلة والحمادى، والتقائه بالجنود المرينيين وبطشه بهم وتقدمه إلى وادي يسر ودخوله تلمسان عنوة، لينهى القصيدة منشدا:

نظمنا شتيت الملك بعد افتراقه *** وكم بات نهبا شمله دون ناظم

شددنا له أزرا وشدنا بناءه *** بأوثق أركان وأقوى دعائم

فصارت ملوك الأرض تأتى مطيعة *** إلى بابنا تبغى التماس المكارم

وجاءت لنا من كلّ أوب ووجهة *** تبايعنا طوعا وفود العمائم

وقمنا بأمر الله في نصر دينه *** وفى كفّ ما قد أحدثت من مظالم

يفتخر الشاعر بأنه أعاد للملك الزياني المنهوب نظامه وسلطانه، وشدّ أزره وقوته، وشاد بناءه وأعلاه أقوى ما يكون الإعلاء بأركان وثيقة ودعائم متينة، مما جعل ملوك الأرض يقصدون بابه معلنين طاعتهم زلفى إليه والتماسا لمكارمه، وإن قبائل العرب ليفدون عليه من كل ناحية وجهة تبايعه طوعا، وإنه ليقوم بنصر دين الله ونشر العدل في ربوع بلاده والقضاء على ما أحدث المرينيّون من مظالم

يفتخر في قصيدة ثانية من وزن المتدارك بسياسته الرشيدة في الحكم قائلا:

أنزلت الناس منازلهم *** وتركت الظالم في وجل

أحمى المظلوم وأنصره *** وأقيم الحق على عجل

وأنا للحرب كعنترها *** وأنا في السلم أخو جذل

وأنا موسى وأبو حمو *** أصلح للملك ويصلح لي

سيفي إن صلت بقائمه *** أدنى المرّاق إلى الأجل

وكذا كفّاي إذا انبسطت*** من كان مقلاّ عاد ملي

من خلال الشعر يسوس أبو حمو رعيته سياسة حميدة، ينزل الناس فيها منازلهم دون خفض أو رفع، وهي سياسة تقوم على العدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه، وإنه ليحمي المظلوم من ظالمه وينصره عليه، ويقيم الحق سريعا لا يخشى فيه ملامة لائم، وإنه شجاع شجاعة عنتر بن شداد في الحرب، أما في السلم فإنه صاحب دعة وحياة آمنة رافهة، ويقول أنا أبو حمو موسى أصلح للملك بعدلي وحكمي القويم ويصلح لي، وإنه لبطل في الحرب يقطع رقاب المارقين والثائرين، أما في السلم فغيث مدرار، وإن كفيه لتنثران الأموال نثرا، حتى ليصبح المقِلُّ الفقير مليئا ثريا، ويقول مفاخرا:

وما بسوى العلياء همنا جلالة*** إذا هام قوم بالحسان النّواعم

بروق السيوف المشرفيّات والقنا*** أحبّ إلينا من بروق المباسم

وأحسن من قدّ الفتاة وخدّها*** قدود العوالي أو خدود الصوارم

وأما صهيل السابحات لدى الوغى*** فأشجى لدينا من غناء الحمائم

إذا نحن جرّدنا الصوارم لم تعد *** لأغمادها إلا بحزّ الغلاصم

يفتخر أبو حمو بنفسه وقومه قائلا: إذا كان الناس يهيمون بالحسان الجميلات فإننا لا نهيم إلا بالعلياء والمجد والشرف، وإن بروق السيوف المشرفيات والرماح لأحب إلينا من بروق المباسم الفاتنة، وأحسن عندنا من قدّ الفتاة وقوامها وخدها الجميل قدود الرماح وخدود السيوف الصوارم القاطعة، وإن صهيل الخيل في الحرب لأشجى عندنا من غناء الحمائم الذى طالما تغنى به الشعراء، وترانا في الحرب إن نحن شهرنا السيوف لم تعد لأغمادها إلا بحزّ الغلاصم والرقاب، ويمضى فى القصيدة قائلا:

ألا أيها الآتي لظلّ جنابنا *** نزلت برحب في عراص المكارم

وقوبلت منا بالذي أنت أهله *** وفاض عليك الجود فيض الغمائم

بهمّتنا العليا سمونا إلى العلا *** وكم دون إدراك العلا من ملاحم

يبشر الشاعر من ينزل بجنابهم وفي كنفهم أنه ينزل برحب واسع في عرصات أو ساحات المكارم، ويقابل بما يليق به، ويفيض عليه الجود فيض السحاب الهاطل. ويقول إنهم لذو همم عالية سمت بهم إلى العلا وكم دون إدراكها والحصول عليها من ملاحم وحروب طاحنة، ويقول مفاخرا فى انتصار له على الدولة المرينية:

لقد نهضت بعون الله متّكلا*** على الإله ومن يرجموه لم يخب

بعسكر لجب ضاق الفضاء به*** كالبحر أعظم به من عسكر لجب

من كل ليث شجاع فارس بطل*** حامى الذّمار من الأعجام والعرب

على سوابق خيل ضمّر عرب *** تزهى بحليتها كالخرّد العرب

بها وطئنا بلادا لا سبيل لها*** وما أردنا تناولناه من كثب

يقول إنه نهض لحرب المرينيين مستعينا بربه متكلا عليه راجيا النصر منه، ومن يرجوه لا يخيب رجاؤه، وقد نازلهم بعسكر كثير ضاق الفضاء به، وكأنه بحر زاخر بالليوث الشجعان والفرسان الأبطال حماة الذمار من العجم والعرب، يركبون إلى الحرب خيولا ضامرة نجيبة وهي بجمالها زهو الجميلات المعجبات بحسنهن. ويقول إنهم يطئون بحوافرها بلادا بعيدة يذلّلونها تذليلا، ولا بلدا ولا ناحية أردناها إلا انتصرنا فيها وانقادت إلينا انقيادا.

لقد أجاد أبو حمو في قرض الشعر خاصة غر الفخر، وخصصه بميزات عامة تأثر فيها بعمر بن كلثوم والمتنبي وميزات خاصة انفرد بها دون غيره تمثلت في العرق والدين واللطان والحسب والنسبن وقد جمع الحافظ التنسي ذلك فيه كتابا سماه: «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر وما قيل فيه من الأمداح».

3_ أبرز مدّاح أبي حمو موسى الزياني الثاني:

لعل حاكما من حكام الدولة الزيانية لم يمدح كما مدح أبو حمو موسى الثانيي (760 - 791 هـ) الذى خلّص تلمسان من حكم المرينيين واستعادها لأسرته، وكان أديبا فذّا وشاعرا ماهرا، نهضت تلمسان في عهده نهضة علمية وأدبية عظيمة، وأحاطت به كوكبة من الشعراء ألم بها وبمدائحها التنسي في كتابه المذكور آنفا، ومن مداحه وكتّابه محمد بن صالح شقرون وأبو الفضل العصامي ومحمد بن قاسم، ومن مداحه أيضا محمد بن أبى جمعة التلالسي أحد أطبائه، وفيه يقول في قصيدة:

مطاع شجاع في الوغى ذو مهابة ***حسام على الباغين في الأرض قد سلاّ

له راحة كالغيث ينهلّ ودقها *** وصارم نصر مرهف الحدّ لافلاّ

إمام حباه الله ملكا مؤزّرا *** فلا ملك إلا لعزّته ذلاّ

من الزّاب وافانا عزيزا مظفّرا *** يجرّ من النّصر المنوط به ذيلا

لطاعته كلّ الأنام تبادرت *** فيا سعد من وافى ويا ويح من ولّى

لقد جبر الله البلاد بملكه *** به ملئت أمنّا به ملئت عدلا

والقصيدة بديعة استهلها التلالسى بوصف طبيعة تلمسان الجميلة، ونوه بوجود قبر الصوفي الكبير أبى مدين شعيب فيها، وعاد إلى الإشادة بحسنها وأنها جنة الدنيا ثم أخذ في مديح أبى حمو واستيلائه على تلمسان

من يد الدولة المرينية قهرا ومبادرتها إلى عقد الصلح. وله موشحة أنشدها المقرى فى أزهار الرياض يجمع فيها بين مديحه ومديح الرسول الكريم، ومن مديحه له فيها:

من لم يزل يسمو *** إلى المعالى كلّ حين

ذاك أبو حمّو *** المولى أمير المسلمين

طاعته غنم *** نلنا بها دنيا ودين

استنّ أبو حمو في تلمسان الاحتفال بليلة مولد سيد المرسلين، وكان المنشد يستهلّ الحفل بإنشاد مدحته النبوية، ثم يظل ينشد طويلا ما رفع إليه من مدائح شعراء البلاط في أبى حمو وفي الرسول الكريم، وتسمى تلك القصائد باسم المولديات، وظل ذلك تقليدا بعده، وممن تولى مقاليد الحكم بعده ابنه أبو زيان محمد الثاني (796 – 801 هـ)، وكان كلفا بالعلم والأدب، وكان شاعرا كما كان عالما، وتهادى مع السلطان المملوكي برقوق (784 – 801 هـ)، والطريف أنه وجّه إلى برقوق مع هديته قصيدة من نظمه استهلّها بتصوير أشواقه وحنينه إلى زيارة المصطفى والبقاع المقدسة، ومن قوله بها في مديح السلطان برقوق:

ملك به نام الأنام وأمّنت *** سبل المخاوف، لا يخاف سبيل

والملك ضخم والجناب مؤمّل *** والفضل جمّ والعطاء جزيل

والصّنع أجمل والفخار مؤثّل *** والمجد أكمل والوفاء أصيل

يا خادم الحرمين حقّ لك الهنا *** وحباك من روح الإله قبول

خاتمة:

ظلت الدولة الزيانية تبجل الأدب وتقدمه في المجالس وفي الحياة اليومية، فممن انتعش الأدب في أيامه بعده أبو مالك عبد الواحد الزيانى (814 – 827 هـ)، الذي يشيد به التنسي في قوله: إن الأدباء جاءوا إلى بابه ينسلون من كل حدب، فينقلبون بجر الحقائب، ظافرين بجزيل الرغائب، ويضرب مثلا لمادحيه من غير التلمسانيين قصيدة لشاعر فارسي يسمى على العشّاب يهنئه فيها ببعض فتوحه قائلا:

ملك تجلّل بالمهابة وارتدى ***وسما فدان له الزمان الأسعد

كم بيّنت آراؤه من مشكل *** والله يكفل ملكه ويؤيّد

ملك أبى الرحمن إلا نصره *** فمن الذى يخفى سناه ويخمد